حوليات جامعة الجزائر 2 – أبو القاسم سعد الله
المجلد 02 – العدد 01 - ذو الحجة 1443/ جوان 2022

ISSN-2773- 3858
EISSN -2992-0973

حجاجية المثل في القرآن الكريم
من خلال كتاب الأمثال لابن القيم

Pilgrimage proverb in the Holy Quran

Through the book of proverbs Ibn al-Qayyim

د-محمد بومقواس
مخبر اللسانيات التداولية و تحليل الخطاب الأدبي
جامعة عمار ثليجي – الأغواط-
Med.boumegouas@lagh-univ.dz

تاريخ الارسال:2020/11/14	تاريخ القبول:2020/12/18	تاريخ النشر :2022-06-30

الملخص:

نسعى في هذا البحث إلى الإجابة عن سؤال مفاده: ما القيمة الحجاجية التي يحملها المثل في القرآن الكريم؟ حيث أن المثل عموما، و في القرآن خاصة يعد من الأساليب التي تزاوج بين الإمتاع والإقناع، لذا كان المثل وسيلة ناجعة في ميدان الحجاج، وهذا ما جعلنا نطرح فرضيات عديدة، تكون إجابة للتساؤل الأول، فقد بحثنا في هذه الآلية المُقنعة (المثل) عن طريق الدراسة والتحليل للحجاج و المثل بمنهج وصفي مكننا من الإحاطة بالمفهومين بوضوح، ثم بحثنا في عناصر المثل، مادته وشكله لنصل إلى القوة الإقناعية بمنهج تحليلي، وباستعمال الوسائل المنطقية واللغوية التي وظفها العلماء العرب والغرب، سعيا لإبراز القدرة الحجاجية للمثل في القرآن الكريم.

الكلمات الدالة: الحجاج، المثل، القرآن الكريم، الاستدلال، الإقناع.

Abstract-.

In this research, we seek to answer the question: What is the argumentative value of the proverb in the Holy Qur'an? As the proverb in

general, and in the Qur'an in particular, is one of the methods that marries pleasure and persuasion, so the proverb was a useful tool in the field of pilgrims, and this is what made us put forward many hypotheses, which are an answer to the first question. The study and analysis of pilgrims and proverbs with a descriptive method enabled us to understand the two concepts clearly, then we examined the elements of the proverb, its substance and form, in order to reach the persuasive power with an analytical method, and by using the logical and linguistic means employed by Arab and Western scholars, seeking to highlight the pilgrimage capacity of the proverb in the Holy Qur'an.

Key words: Pilgrims, proverbs, the Holy Quran, inference, persuasion.

2- مقدمة:

ينطلق هذا البحث من فكرة مهمة، يمكن القول إنها قد تكشف عن ظاهرة مميزة للأسلوب القرآني، تتعلق بحضور أسلوب من أساليب القرآن الكريم بشكل بارز، ألا وهو أسلوب ضرب المثل، وبإحصاء بسيط يكتشف الباحث أن الأمثال في القرآن الكريم تبلغ نحو أربعين مثلا صريحا، إضافة إلى باقي العبارات التي تصلح أن تكون مثلا، وهذا يبين الحيز الكبير الذي نالته الأمثال في الاستعمال القرآني، والمعلوم أن الأمثال تضرب للوصول إلى معنى وغرض محدد، بمقارنة الأشياء ببعضها، والله تعالى إذ يضرب الأمثال في القرآن فإنه يضربها ليؤمن الناس به وحده، ويبين لهم أن كل شيء ما خلاه باطل، فإذا أضفنا إلى هذه الفكرة ما قرره غير واحد من علماء البحث القرآني -فيما يتعلق بموضوع القرآن وأهدافه- أنه من أوله إلى آخره محاجة مع الكفار، وبالجمع بين الفكرتين، أي بين الحضور الكبير للمثل في القرآن وبين كون القرآن على الجملة محاجّة، لدينا افتراض أولي مفاده أن المثل القرآني لا يخلو من محاجة ولا يغيب عنه دوافع وأغراض تستهدف استمالة المتلقي والتأثير فيه لتغيير مواقفه، غير أن هذا الافتراض المسبق لا يمكن له أن يصمد ما لم توضع فرضيته

تلك أمام البحث وتخضع لآليات إجرائية تتوخى الكشف عن العناصر الحجاجية التي يتوفر عليها هذا النوع من الأساليب .

نهدف من خلال هذا المقال الوصول إلى إبراز بعض مكامن الحجاج في استعمال القرآن الكريم للمثل بأنواعه وأشكاله، محاولين الكشف عن الوظيفة الحجاجية التي يضطلع بها المثل القرآني و قدرته على إحراز الإقناع، ولأجل تحقيق الأهداف المرجوة من الدراسة، والتي هي بيان القوة الحجاجية للمثل في القرآن الكريم حاولنا أن نجيب عن الأسئلة التالية: ما هو الحجاج ؟ و ما هي أهم المعاني التي يحملها ؟ ما مفهوم المثل في القرآن ؟ وما هي أنواعه وأشكاله ؟ وهل ضرب الأمثال في القرآن يعتبر أسلوبا من الأساليب الحجاجية ؟ فإشكالية المقال هي كالتالي:

ما القيمة الحجاجية التي يحملها المثل عموما و المثل القرآني خصوصا؟.

2- تعريفات :

- **ابن القيم** : الشيخ محمد بن أبي بكر بن أيوب:" ابن القيم" وعرف بذلك وأشتهر به، وُلِد ابن القيم في السابع من صفر عام691 هـ الموافق للثاني من فبراير1292 م ، ويقال أنه ولد في ازرع جنوب سوريا وقيل في دمشق، من عائلة دمشقية عرفت بالعلم والالتزام بالدين، والده كان قيما على مدرسة الجوزية بدمشق مدة الزمن، واشتهر بذلك اللقب ذريته وحفدتهم من بعد ذلك، وقد شاركه بعض أهل العلم بهذه التسمية.1

الحجاج و المثل:

الحجاج: لغة: يقول ابن منظور عن كلمة "حجج": «الحج القصد، حج إلينا فلان أي قدم، وحجه يحجه حجا قصَده...و الحجة البرهان، و قيل الحجة ما دوفع به الخصم، واحتج بالشيء اتخذه حجة »2.

الحجاج اصطلاحا :

يعد الحجاج استراتيجية لغوية يتحقق في الواقع وفق معطيات السياق، فالمتكلم أثناء العملية التخاطبية ينقل تصوراته ومدركاته الموجودة في واقعه إلى المستمع، قاصدا بذلك الإخبار و الإقناع، فالحجاج:«جنس خاص من الخطاب، يُبنى على فرضية خلافية، يَعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من

الأقوال قاصدا إقناع الآخر بصدق دعواه، والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية »3.

تعريف المثل لغة: مَثَل: كلمة تسوية، يقال: هذا مِثله ومَثَله كما يقال شِبهه وشَبَهه والمثل: الشبه، يقال: مَثل ومِثل وشَبه وشِبه بمعنى واحد، ويقال: تمثل فلان، ضرب مثلا، وتمثل بالشيء ضربه مثلا4.

اصطلاحا: نجد أن أبا حيان الأندلسي قد عرّف المثل بقوله : ‹‹ الْمَثَلُ: الْقَوْلُ السَّائِرُ الَّذِي فِيهِ غَرَابَةٌ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، وَقِيلَ المثل ذكر وصف محسوس و غير محسوس يُستدل به على وصف مُشابه له من بعض الوجوه فيه نوع من الخفاء ليصير في الذهن مساويا للأول في الظهور من وجه دون وجه »5 هذا التعريف يبين الغرض من ضرب المثل، الذي هو الاستدلال على شيء خفي غير ظاهر، بشيء محسوس ظاهر، لما لهما من التساوي بوجه من الوجوه،فالمثل في الاصطلاح هو : «كشف الحجاب عن الأمور العقلية الخفية و تشبيهها بالمحسوسات الجلية حتى تبدو في صورة مألوفة قريبة من الفهم والتصور، ولا فرق في ذلك بين إبرازها في أسلوب التشبيه أو الكناية أو الاستعارة »6.

من خلال هذه التعريفات نستطيع القول بأن الأمثال: أقوال سيقت للعظةِ والاعتبار و التفكر، مع الإيجازِ والإحكام، وقضايا الأمثال تنطلق مما هو معروف لدى العقول البشرية، فيحملها على التسليم بها، فإذا ما عرض للناسِ في حياتهم أمرٌ من الأمورِ التي تدخل في مفهومِ أحد الأمثال تمثَّلوا به، فتأنس النفوس وتقتنع.

المثل في القرآن الكريم:

يختلف تعريف المثل القرآني عن المثل الشعبي أو السائر، كما يؤكد ذلك علماء البلاغة و التفسير وغيرهم، فقد ورد لفظ (المثل) وما يشتق منه في القرآن تسعا و ستين و مائة (169) مرة 7،فكان له استعمالات في معان متعددة يحددها لفظ المثال نفسه، ودلالته في السياق الذي جاء فيه، يقول مناع القطان: ‹‹ أمثال القرآن لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوي، الذي هو الشبيه والنظير، ولا يستقيم حملها على ما يذكر في كتب اللغة لدى من ألفوا في الأمثال، إذ ليست أمثال القرآن أقوالا استعملت على وجه تشبيه مضربها بموردها، ولا يستقيم حملها على معنى الأمثال عند علماء البيان، فمن أمثال القرآن ما ليس باستعارة و لم يفش استعماله »8 ومن

هذا المنطلق قدم هذا الباحث تعريفا للمثل في القرآن الكريم فقال: «هو إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة، لها وقعها في النفس، سواء أكانت تشبيها أو قولا مرسلا »9 و يقدم ابن القيم تعريفا للمثل في اصطلاح القرآن فيقول : « هو تشبيه شيء بشيء في حكمه وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر»10 فالمثل القرآني يأتي لتوضيح فكرة ما عن طريق التشبيه والتمثيل، فهو في القرآن تشبيه شيء بشيء لتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين إلى الآخر، أو اعتبار أحدهما بالآخر، لغرض التأديب والتهذيب والتوضيح والتصوير.

حجاجية المثل في القرآن الكريم:

نسعى في صلب هذا البحث الإجابة عن إشكالية هي أساسه ولبه، وهي : ما البعد الحجاجي الذي يوفره المثل للمحاجج؟ أو ما الذي يحوج المتكلم إلى استخدام الأمثال في سعيه إلى حمل المخاطب على الاقتناع ؟ بعبارة أخرى ما الآليات الحجاجية التي تجعل المتلقي يستجيب لأهداف الخطاب ؟.

بداية نقصد بحجاجية المثل: الآليات التي تجعل من المثل عموما، وفي القرآن خاصة وسيلة للإقناع ، وهذه الفكرة (فكرة الحجاج بالمثل) أخذت اهتمام الدارسين منذ القدم.

يرى "بيرلمان" و "تيتكاه" في مؤلفهما "مصنف في الحجاج .. الخطابة الجديدة" أن التمثيل مهم في عملية الإبداع، وفي الحجاج على حد سواء، ومرد ذلك أساسا إلى ما يتيحه من امتداد وتوسع، فالتمثيل يوضح بنية الموضوع و يضعه في إطار مفهومي، وهو طريقة حجاجية تعلو قيمتها على مفهوم المشابهة، حيث لا يرتبط التمثيل بعلاقة المشابهة دائما، وإنما يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان لها أن تكون مترابطة11،فالتمثيل إذن تقنية خاصة في العملية الحجاجية عند البلاغيين القدامى والغرب المحدثين، وما يهمنا هو محاولة دراسة التمثيل كتقنية حجاجية لها فاعليتها في الإقناع، فما يوفره المثل من طاقة حجاجية قادر على إثارة المتلقي وشغل تفكيره بالبحث عن العلاقة التي تجمع بين صورة المشبه والمشبه به، وما تحدثه هذه العلاقة التصويرية من أثر في نفس المتلقي تحمله على الإقناع والقبول بتلك التشبيهات12، ولقد وضع المؤلفان التمثيل ضمن التقنيات الحجاجية، و بالضبط ضمن الطرائق الاتصالية .

والمثَل ينبغي أن تكون له مكانته باعتباره أداة برهنة و حجاج، فهو ذو قيمة حجاجية، تظهر حين ننظر إليه على أنه تماثل قائم بين البنى، و صيغة هذا التماثل العامة هي: إن العنصر(أ) يمثل إلى العنصر (ب) ما يمثله العنصر(ج) بالنسبة إلى العنصر(د) »13 فهذا يعني أن التمثيل عند كل من بيرلمان و تيتكا يمثل مواجهة بين البنى المتشابهة و إن كانت مجالاتها مختلفة، فانصهار أطراف التمثيل من الناحيتين (أ ، ب) و (ج ، د) يسهل العملية الحجاجية فيحدث الإقناع والحجاج، و لتوضيح هذا الكلام نورد هذا المثال بقول المتنبي:

فإن تفُق الأنام و أنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال.

فما يمثله الممدوح بالنسبة إلى الناس الذين هو منهم، نجده في ما يمثله المسك الذي هو شيء نفيس بالنسبة إلى مصدره (دم الغزال) ، وهذا ما يبين التشابه في العلاقتين، و المثل حسب بيرلمان و تيتكاه يؤتى به في الحالات التي لا توجد فيها مقدمات، تكون منطلقات و مسلمات يقبل بها المتلقي و هي كالآتي :الوقائع ، الحقائق ، الافتراضات ، القيم ، والمواضع .

ولكي تتحقق الحجة بالمثل ينبغي أن توجد اختلافات بين طرفي التمثيل، حتى يمكننا أن نؤسس قاعدة تربط بينهما وبهذا يتم الحجاج بالمثل، و يسمي المؤلفان العنصر (أ،ب) "الموضوع "أما العنصران (ج،د) " الحامل" ، ويكون الحامل أشهر من الموضوع حيث يأتي ليوضح بنيته العلائقية، و هذا الحامل و الموضوع يكونان من ميدانين مختلفين لأن الغاية من التمثيل توضيح الموضوع بواسطة الحامل الذي يعد أشهر من الموضوع، ثم ينشأ بينهما تفاعل 14.

وأما محمد العمري فقد ذهب إلى أوسع من ذلك فتكلم عن حجاجية الصورة عموما، وما التشبيه والتمثيل إلا جزء من الصورة فيقول: « الصورة كل ما يترتب عن التشبيه و التمثيل و الاستعارة و الكناية »15 فمن كلام محمد العمري نعلم أن الاستعارة و التشبيه خاصة يجتمعان مع المثل في بيت الصورة لتأدية الدور الحجاجي ذاته في استمالة و إقناع المخاطب، وهذا ما أكده بيرلمان وتيتكاه في مصنفهما، إذ إن « التفاعل بين أطراف التمثيل يشتد ويلطف أحيانا فيصبح استعارة »16 و معنى هذا الكلام أن الاستعارة مشتقة من التمثيل و منطلقة منه، فحجاجيتها ناتجة أساسا من التفاعل الحاصل فيها بين الموضوع و الحامل، ويرى بيرلمان و تيتكاه أن تحليل

الاستعارة حجاجيا لا يتم إلا من خلال اعتبارها تمثيلا قد تكثف « ووجه الكثافة فيه الاندماج الحاصل بين أحد عناصر الموضوع وأحد عناصر الحامل اندماجا لا يمكن معه معرفة أي العنصرين هو الموضوع و أيهما الحامل وهو ما يحتم علينا أن نستنجد بأحد السياقيين المقامي و المقالي لكي نفهم »17 يتضح من هذا، أن الصورة عموما و التمثيل خاصة يعتبر من الوسائل الحجاجية الناجعة، فالتمثيل يؤثر في المتلقي من حيث استحضار المعنى عن طريق تجسيد المعاني العقلية في صورة محسوسة، ذلك أن التمثيل لا أحد ينكر وظيفته في الابتكار فهو:« يقدم نمطا أساسيا من الدليل بالنسبة للبعض، في حين ينظر إليه بحذر من طرف آخرين، لكن يبدو أنه من المحال جدا الاستغناء عنه»18، والتمثيل ليس مجرد تصوير للأشياء، أو إسقاط شيء على أخر وإنما التمثيل:« حيوية تسري في إدراكنا لمكونات المحيط جملة، فهو يترجم دائما حركة إلى الأمام »19 .

حجاجية المثل ونموذج تولمين :

اخترنا هذا النموذج من الحجاج لنوظفه كطريقة لاستخراج ما يحمله المثل من قدرات حجاجية، فمفهوم الحجاج عند" س .إ .تولمين" يتضح من خلال كتابه الذي أصدر سنة 1958 بعنوان "الاستعمال في اللغة "الذي يهدف إلى دراسة الأدوات الحجاجية في الاستخدامات العادية للغة فهي:« نظرية واسعة في المنطق تهدف أساسا إلى نقله من ميدان العلوم الشكلية إلى ساحة العلوم التطبيقية، من خلال العمل على دمجه في محادثاتنا اليومية التي نكون فيها في أمس الحاجة إلى أن نبرهن على بعض الأشياء، و أن نقدم حججا و أدلة، وحتى عندما نريد أن ندافع عن آرائنا و مواقفنا المختلفة »20، والمثل -كما هو معلوم- مدمج في محادثاتنا اليومية، و غالبا ما يستعمل حجة ندلل به على كلامنا، من خلال الربط الاستدلالي بين الواقعة وبين مضمون المثل، فهو يستعمل في تقوية فكرة أو الدفاع عن رأي معين، وهذا ما نجده مطبقا في مواقفنا اليومية التي هي في حاجة دائمة للدفاع عنها و نقلها إلى جمهور المخاطبين ليقتنعوا بها، و يقوم الحجاج عند "تولمين "على ثلاثة عناصر أساسية هي:

المقدمة/ المعطى، الضمان، النتيجة.

ونعرض لذلك بعدة رسومات بيانية في أشكال،هي على النحو الآتي :

الأول :

يمثل حجاجا ذا ثلاثة أركان أساسية هي :المعطى أو المصرح به (م)، و النتيجة(ن)، و الضمان (ض) و يصاغ على النحو التالي :

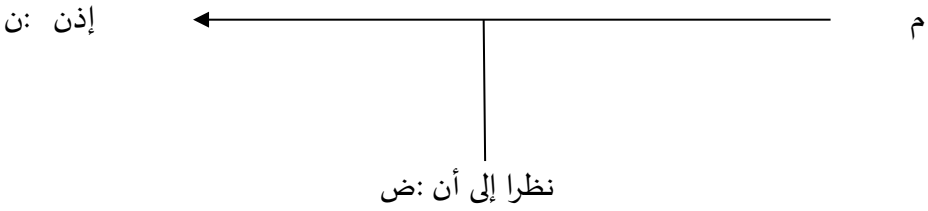

الثاني :

يمثل حجاجا أدق من السابق بإضافة الموجه (ج)،و الاستثناء (س)، ويتمثل دورهما في تحديد قوة الضمان،وعلاقته بالعبور من المقدمة إلى النتيجة ويمثَّل له بالمخطط:

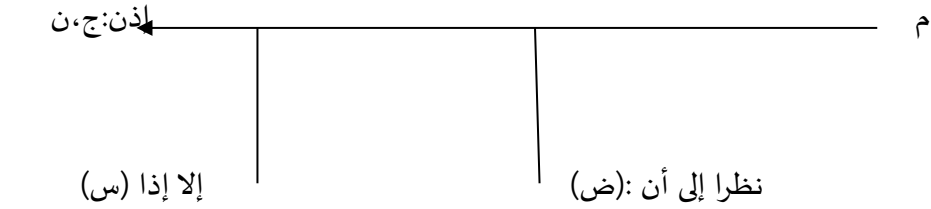

من خلال الرسمين نخلص إلى أن الحجاج عند تولمين هو سيرورة منطقية تنطلق من المقدمات ولا تتوقف إلا بالوصول إلى النتائج المتوخاة من خلال قانون العبور الذي يكون مناسبا و مقبولا لدى الجميع، و الآليات الحجاجية -مثل الضمان و الموجه و الاستثناء- تهدف جميعها إلى تقوية الحجج21.

حجاجية المثل و نموذج ديكرو:

تم اختيار هذا النموذج ليكون آلية نستعملها لبيان مكامن القوة الحجاجية الموجودة في المثل ، وما يمكن أن يوفره هذا النموذج من أدوات للتحليل، اهتم "ديكرو" بإبراز نظام و تراتبية الحجج (حجج قوية، حجج ضعيفة)و حجج أخرى قد يعلو بعضها على بعض (حجج عليا، حجج سفلى) بالنسبة إلى نتيجة معينة، و تشكل العلاقة بين مراتب الحجاج ما يسمى بالسلم الحجاجي، و نظرية الحجاج في اللغة عند ديكرو تنطلق من فكرة مفادها أنّنا نتكلم عامة بقصد التأثير، و أن الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج 22، فالحجاج عند ديكرو كامن في اللغة يقوم على التكامل بين

فعلين أساسين هما :فعل التصريح بالحجة من ناحية، وفعل الاستنتاج من ناحية أخرى، وهذا بهدف بيان ما تحمله اللغة من وظيفة حجاجية، وبالتالي نستطيع القول إن المثل يقوم بنفس العملية، فهو حجة تجعل المتلقي يستنتج مدلولها بنفسه، فتسلسل الأقوال في الاستدلال ليس مؤسسا على الأقوال نفسها، ولكنه مؤسس على القضايا المتضمنة فيها، ولبيان الترابطات بين الأقوال و كيفية اشتغالها اقترح ديكرو مفهوم السلم الحجاجي .

فالسلم الحجاجي هو:« كل علاقة ترتيبية لحجج معينة»23 و يُرمز له بـ :

ن

ق3

ق2

ق1

حيث (ق1) و (ق2) و(ق3) حجج و (ن) النتيجة المستخلصة من هذه الحجج، فالحجتان (ق1) و (ق2) تدعمان معا النتيجة (ن)، بهذا يصير السلم الحجاجي عبارة عن فئة حجاجية موجهة تنبني أساسا على التدرج بين الأقوال، وهذا التدرج ليس اعتباطيا، وإنما يخضع لقوانين ثلاثة حددها ديكرو هي24:

قانون النفي: إذا كان قول ما "أ" مستخدما من قبل متكلم ما ليخدم نتيجة معينة، فإن نفيه سيكون حجة لصالح النتيجة المضادة.

قانون القلب:يرتبط هذا القانون أيضا بالنفي، ويعد تتميما له، ومفاده: إن السلم الحجاجي للأقوال المنفية هو عكس سلم الأقوال الإثباتية، ويمكن التعبير عن هذه الفكرة بصيغة أخرى فنقول: إذا كانت إحدى الحجتين أقوى من الأخرى في التدليل على نتيجة معينة، فإن نقيض الحجة الثانية أقوى من نقيض الحجة الأولى في التدليل على النتيجة المضادة.

قانون الخفض: يوضح قانون الخفض الفكرة التي ترى أن النفي اللغوي الوصفي يكون مساويا للعبارة :"أقل من " فعندما نستعمل جملا من قبيل:

- الجو ليس باردا.

- لم يحضر كثير من الأصدقاء إلى الحفل.

فنحن نستبعد التأويلات التي ترى أن البرد قارس وشديد (المثال الأول) أو أن الأصدقاء كلهم حضروا إلى الحفل 25، مما سبق نكون قد بينا بعض النماذج و الآليات التي سنستعملها كأداة لتحليل المثل ، من أجل الوصول إلى بيان ما للمثل من قوة وطاقة حجاجية تميزه عن غيره من الأقوال العادية التي غالبا ما تخلو من تلك الميزة التي تجعل بعض الكلام أقوى و أنجع حجاجيا من قول آخر.

4 – نموذج تطبيقي:

للبحث عن الدور الحجاجي الذي يؤديه المثل عموما، و في القرآن الكريم خاصة، لا بد من البحث عن هذه الحجاجية ضمن الجوانب التي يتركب منها المثل من خلال المادة المكونة له، ثم ننتقل إلى دراسة شكل المثل و ما يترتب عنه من قوة حجاجية، لنصل إلى إظهار آليات الاشتغال الحجاجي في المثل، و هذا سيكون حسب التصور و الترتيب التالي: مادة المثل، شكل المثل ، آليات الاشتغال الحجاجي في المثل.

- مادة المثل :ونعني بمادة المثل أو الصورة في القرآن الكريم : « مضمونها الذي يعتمد فيه لغاية الإقناع ، عالم خطاب متلقيه الأول ، و المقصود بعالم الخطاب هنا مجمل كفاءات المتلقين المعرفية والنفسية والثقافية والعقدية التي يأتي مضمون الصورة مستندا إليها مشكلا بها معتمدا عليها بطريقة يكون مضمون الصورة هذا غير غريب عنهم ، فهو معلوم لديهم ، وتبعا لذلك يكون نفاذه إلى قلوبهم و إلى عقولهم في سهولة و يسر، ويحصل إقناعهم بما أريد إقناعهم به دون صعوبة أو عسر »*26* فالمثل في القرآن الكريم كان ينطلق في كل مرة مما هو معلوم ومعروف لدى المتلقين ومادام الكلام عن شيء معروف فالتسليم والإذعان يكون للقضايا المعروفة ، والتي يشترك في معرفتها جميع الناس ، أسهل وأنجع حجاجيا.

قال الله تعالى:{ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} **الجمعة/ 5).**

مثل الذين أوتوا التوراة من اليهود والنصارى، فحُمِّلوا العمل بها، لكن لم يعملوا بما فيها، وكذّبوا بمحمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم، وقد أمروا بالإيمان به كمثل حمار يحمل

على ظهره كتبًا، لا ينتفع بها، ولا يعقل ما فيها، فكذلك الذين أوتوا التوراة التي فيها بيان أمر محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم مثلهم إذا لم ينتفعوا بما فيها، كمثل الحمار الذي يحمل أسفارًا فيها علم، فهو لا يعقلها ولا ينتفع به27 ، ممّا هو معلوم لدى الجميع أن الحمار حيوان يضرب به المثل في عدم الفهم، حتى ولو وضعنا فوقه كتبا تحمل علما، فالكافر لا ينتفع بالوحي رغم أنه منزل أمامه، ففي هذا المثال، بنى القرآن الكريم صورة انطلاقا من عالم الحيوانات "الحمار" و هو من الحيوانات المعروفة عند المخاطبين، بصفاتها عند كل واحد وتحظى هذه الحيوانات بالموافقة العامة عند الجميع لأنها تنتمي إلى البيئة الإنسانية، فيحصل بها الإقناع ، وبذلك يبعث القرآن برسائل يذم من خلالها أعمال الكفار و المنافقين بطريقة التمثيل.

-**شكل المثل:** المقصود بالشكل : « البناء الذي تتشكل وفقه مادة الصورة تلك ، تشكلا حجاجيا من شأنه أن يؤدي إلى الإقناع »28 ، و المثل في القرآن الكريم يرد بصور متعددة ،ويحمل دلالات متنوعة، و قد بدا أن الشكل المهيمن للأمثال في القرآن الكريم يحمل الشكل التالي29:

الدليل ← المدلول

(أ،ب)=(ج،د) ← (أ،ب)...

حيث أن :

1. المدلول: هو غرض الكلام.
2. الدليل.: هو اللفظ الموضوع للدلالة على هذا الغرض
3. أ،ب :يمثلان الطرف الأول من التمثيل
4. ج،د: يمثلان الطرف الثاني من التمثيل
5. النقط (...) تمثل المحل الشاغر الذي لم يرد ذكره في بنية المثل، ويتم اكتشافه من طرف

المتلقي، عبر الانتقال بين طرفي التمثيل والمقارنة، ليتم إصدار حكم حسب غرض المثل و مُراده.

وينطبق هذا الشكل على التمثيل الذي يكون قائما على المشابهة بين البنى ، ويوحي للمتلقي أن المشبه متجسدٌ في المشبه به، هذا الشكل من المثل [(أ،ب) = (ج،د)]

هو الغالب في القرآن الكريم30، لما له من قدرة على التصوير الكامل، لأن عناصر التمثيل كلها موجودة فيه حيث أنه : « لا غرابة في أن يستأثر التمثيل بأشكال عدة في التصوير القرآني،ذلك أن الحرب الدائرة بين القرآن و خصومه قد شكلت الأمثال أهم سلاح فيها يستخدمه الطرفان كلاهما »31، ولتوضيح الشكل السابق ذكره، و توضيح رموزه نورد الآية نفسها ، ونجد في هذا المثال :

(أ) الذين حملوا التوراة، وهم اليهود.
(ب) التوراة.
(ج) الحمار.
(د) الأسفار.

هذا المثل تطرق إلى العلاقة التي تكون بين اليهود والتوراة التي كلفوا بها ، ولم ينتفعوا بها ، والعلاقة التي تكون بين الحمار و ما يحمله من أسفار لا ينتفع بها ، ومن هنا ينتج لدينا الشكل التالي :[(أ،ب)=(ج،د)].

الموضوع في هذا المثل يتكلم عن علاقة اليهود بالتوراة التي كلِّفوا بحملها ثمَّ لم يحملوها، فنتج عن هذه العلاقة قيمة سلبية ، وهذا بوضعها في قالب الحامل الذي هو علاقة الحمار بالأسفار التي يحملها، إن صورة الحمار في انتفاعه بحمله الأسفار التي وضعت عليه ! لها صورة أخرى تماثلها ، ألا و هو الترابط بين اليهود و التوراة، التي أُمروا أن يحملوها ! ومعلوم أنَّه لا أحد يصدق أن الحمار ينتفع بالأسفار، و بهذا التمثيل يحصل تداخل بين [(أ) و (ج)] وبين [(ب) و(د)]، يعني بين اليهود و الحمار من جهة ، باعتبارهم مكلفين بحمل شيء له قيمة ، وبين التوراة و الأسفار من جهة أخرى ، فهذا التمثيل يجعل الحمار مع اليهود في كفة واحدة، و على اعتبار أن بلادة الحمار ، و عدم استفادته مما يحمل من أشياء - ولو كانت ذا قيمة- قضية يسلِّم بها الجميع و لا يمكن ردها أو الاعتراض عليها، فإن هذا ينجم عنه قيمة سلبية تلتصق بالحمار الذي لا يفقه ما يحمل من علوم على ظهره، فمثلما اكتسب الحمار قيمة سلبية لجهله لما يحمل - وهو أمر مسلم به لدى المتلقي – فكذلك اليهود سيحملون قيمة سلبية لعدم عملهم بما حُمّلوا به - أي التوراة – التي أمرتهم بأن يؤمنوا بالرسول "محمد" صلى الله عليه و سلم، هذا التفاعل بين العناصر في طرفي التشبيه أو ما سميناه

"الموضوع و الحامل " [(أ، ب) = (ج، د)]، ثُم التداخل والتفاعل الذي يحصل داخل التمثيل [(أ، ج) (...) (ب،د)] هو الذي أنتج قوة حجاجية تجعل من المتلقي يسلِم لما يعرض عليه من أمثال، فالمحل الشاغر في هذا المثل والذي من خلاله يتم استدراج المتلقي إلى الحكم على نفسه من خلال ملئه، يظهر كون بلادته صارت مجسدة عند تجاهله لما أُمر بحمله لأن علاقته بالتوراة هي علاقة الحمار بما يحمل، إن المحل الشاغر:«ليس مجرد وسيط سياقي يبيح الاستنتاج ، بل إنه كذلك الحجة التي نريد استدراج المتلقي إليها حتى يذعن لها من دون أن نقول له ذلك » 32 فيكون المتلقي هو الذي يدرك مكنونات المثل المطروح عليه، ويعلم المقصود منه، وهذا من خلال ملء المحل الشاغر عن طريق الفهم و التأويل، وبالتالي الوصول إلى نتيجة تجعله يصدر الحكم على نفسه بنفسه عند اضطراره لملء المحل الشاغر، و من خلال هذا المثل يتضح لنا أن المحل الشاغر الذي يراد للمتلقي (اليهود خاصة) استنباطه و فهمه، ليصدر حكما على نفسه أو غيره من خلال مطابقة الموضوع للحامل في التمثيل هو : إنّ اليهود يحملون قيمة سلبية لعدم حملهم التوراة، تماما مثل القيمة السلبية التي يحملها الحمار لعدم انتفاعه بما يحمل، و المدلول في هذا المثل (و هو غرضه) هو: تنبيه اليهود بأن يكون حالهم حال حمار يحمل أسفاراً لا حظّ له منها إلا الحَمل دون علم ولا فهم ، لأنهم لم يؤمنوا بالنبي محمد صلى الله عليه و سلم، رغم أن التوراة تدعوهم لذلك « ذلك أن علم اليهود بما في التوراة أدخلوا فيه ما صيره مخلوطاً بأخطاء وضلالات ومتبعاً فيه هوى نفوسهم وما لا يعدو نفعهم الدنيوي وقد كتموا ما في كتبهم من العهد باتباع النبي الذي يأتي لتخليصهم من ربقة الضلال »33، هذا المدلول وضَّحه دليلٌ يتعلق بلفظ الآية التي جعلتهم (اليهود) مثل الحمار، وسياقها الذي جاء أصلا لمعاتبة اليهود، فهذا التمثيل مقصود منه تشنيع حالهم، وهو من: « تشبيه المعقول بالمحسوس المتعارف »34، فحجاجية هذا المثل انطلقت من أمر مسلَّم به، ولا يمكن معارضته أو رفضه، لتجعل المتلقي في حال تبكيت بعد الإذعان والتسليم للحجة التي هي كامنة في "المحل الشاغر" المتولد من تفاعل طرفي التمثيل، والذي يستنتجه المتلقي من خلال الانتقال مما هو مصرح به إلى ما هو ضمني ، وجعل المتلقي يقتنع بما يعرض عليه من حجج لأنه هو من يسهم في إنتاج قسم من التمثيل

هو «القسم الضمني» 35 وهذا القسم الضمني هو الذي أطلق عليه عبد الله صولة مصطلح "المحل الشاغر".

آليات الاشتغال الحجاجي في المثل:

يتجه اهتمامنا في هذا العنصر من البحث إلى بيان الوجه الثالث من الوجوه الحجاجية التي توجد في المثل، وخاصة المثل القرآني، والذي يتعلق بآليات الاشتغال الحجاجي في المثل، لنُظهر القوة الإقناعية 36 للأمثال القرآنية، وما يمكن أن تؤديه من دور في توجيه سلوك المتلقي فالتمثيل له قدرة كبيرة على تحريك النفوس والعقول.

يرى السكاكيُ « أن تتبع خواص تراكيب الكلام في الاستدلال ضروري لتكملة المعاني »37 حيث ينتقل الذهن من المفهوم الأصلي إلى آخر عن طريق "الدلالة الالتزامية"38.

قال الله تعالى:{ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } يونس 24

نبدأ تحليلنا لهذا المثل من المخطط الاستدلالي الذي وضعناه للسكاكي، و الذي ينطلق من الدلالة الوضعية للفظ ليصل إلى دلالته الاستدلالية ، ونجد فيه.

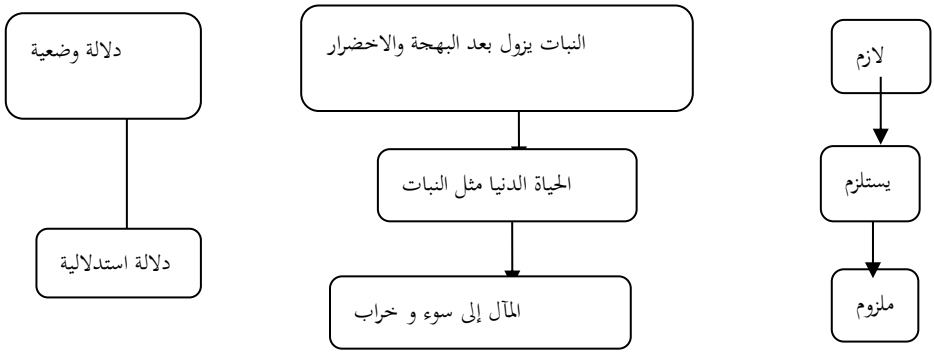

يصور لنا هذا المثل المسار الحجاجي الذي ينبغي للمخاطب أن يسلكه بغية الوصول إلى الغرض المقصود من الكلام، وهو مسار كان واضحا، خاصة إذا علمنا السياق الذي ورد فيه هذا المثل، فقد جاء في سياق الرد على منكري البعث، و هؤلاء المنكرون قد نُزِّلوا منزلة من يعتقد دوام الحياة الدنيا و عدم زوالها، وهو أمر لا يمكن لأحد أن يعتقده، لأنه يرى حقائق الحياة و شواهدها من موت و نقص و انقضاء، و لكن لما كان حالهم في انكبابهم و إقبالهم على الدنيا كحال من يحسب دوامها، تم مخاطبتهم بهذ المعنى و بهذه الطريقة، والمعنى المقصود من الآية هو قصر حالة الحياة الدنيا 39، فالمآل يكون إلى سوء و خراب، فالعدول عن صريح اللفظ "قصر الدنيا" إلى وضعه في قالب التمثيل يجعل المخاطب مستبعدا المعنى الظاهر، وينخرط في مسار استدلالي حجاجي يوضح المقصود من المثل أكثر.

يتضمن هذا المثل كذلك استراتيجية توجيهية، و هي التي يكون الخطاب فيها عبارة عن توجيه للمخاطب و الضغط عليه لأجل تبليغه بمحتوى الخطاب40، والقوة المستمدة في هذه الإستراتيجية هي حجة السلطة التي« تغذوها هيبة المتكلم و نفوذه وسطوته»41 فالمتلقي-خاصة المؤمن- يقتنع بالضرورة، لأن الخطاب مصدره من رب العالمين، لذا سيَحدثُ تغييرٌ في الموقف الفكري للمتلقي ، بحسب أهداف المرسِل، و بعد التأكد من خضوع المتلقي لواحدة من أكبر الحجج (حجة السلطة)، نواصل إظهار آليات الاشتغال الحجاجي في المثل، و هذا يكون بوضع عناصره و نتائجه في سلم حجاجي، ثمّ نبين بعد ذلك ترتيب تلك القضايا داخل هذا السلم، لنصل إلى نتيجة هي الغرض من ضرب المثل ، الذي سيظهر في هذه الأشكال:

ن = الخراب و سوء المآل.

ق5 أتاها أمر الله ليلا أو نهارا.

ق4: ظن أهل الأرض أنهم قادرون عليها.

ق3 أخذت الأرض زخرفها و ازينت .

ق2 اختلاط الماء بالأرض .

ق1 نزول الماء.

حيث أن (ق1،ق2،ق3،ق4،ق5) قضايا تدعم النتيجة (ن) المستخلصة من هذه القضايا، و لأن الآية الكريمة هي عبارة عن مثل، فقد شُبِّهت فيه الحياة الدنيا بنبات الأرض و مآله، والسلم الحجاجي الذي سنضعه سيكون مثل السلم الحجاجي المتعلق بزوال النبات بعد النضارة و الجمال لأننا نماثل بين صورتين: الأولى مراحل الحياة الدنيا، و الثانية مراحل نمو النبات، و مصيرهما.

فينتج لدينا السلم الحجاجي التالي:

ن :سوء حال الدنيا بعد بهجتها.

ق5 أمر الله هو الغالب .

ق4 الاغترار بالحياة الدنيا.

ق3التمتع بزخرف الحياة الدنيا .

ق2 المُشَاهد من المأمول .

ق1 الصبا و أمل العيش.

لقد أظهر هذا السلم الحجاجي مدى سوء حال الحياة الدنيا، لأنها تشبه في مراحل تطورها و سيرها مراحل تطور النبات و سيره، بدءًا من نزول المطر، إلى نضارة ذلك النبات و جماله، وصولا إلى فنائه السريع، رغم اعتقاد الناس أن هذه الأرض تبقى خضراء تسر الناظرين، فهذا هو حال الحياة الدنيا.

إن اختيار القرآن الكريم للمثل في التعبير عن سوء مآل الحياة الدنيا، يؤكد حقيقة مفادها : إن هذا القول "المثل" يعد حجة من أقوى الحجج، لأنه يجعل المتلقي يتصور و يتمثل الحياة الدنيا بحال حصد النبات بعد يَنعِه، وكأنها كانت مثل أرض مخضرة نضِرة، فجاءها فجأةً أمر من الله جعلها سيئة خرِبة، و هذا نجده مبينا بالروابط الحجاجية «التي تربط بين قولين أو حجتين و تسند إلى كل قول دورا محددا داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة »42.

وفي هذه الآية نجد أداة الربط"حتى" التي تربط بين حجج عديدة تجتمع و تخدم حجة واحدة هي النتيجة المقصودة و المرجوة، فيكون القول المشتمل على الأداة "حتى" « لا يقبل الإبطال والتعارض الحجاجي »43 فهذا السلم مع الرابط "حتى" يثبت « معنى الغاية المستفادة من " حتى" ما يؤذن بأن بين مبدأ ظهور لذات الحياة وبين منتهاها مراتب جمة وأطواراً كثيرة ، فذلك طوي في معنى " حتى" »44.

5- الخاتمة

خلاصة لما ذكرنا، وبعد التحليل و الدراسة تمكنا من الوصول إلى استنتاجات عديدة، سنورد بعضها في عناصر هي كالتالي:

1/ يعد استعمال المثل من أهم آليات الإقناع ،خاصة في القرن الكريم.

2/ تنويع أدوات التحليل، سواء أكانت الأدوات استدلالية و هي التي وظفها العرب ،أم كانت الأدوات منطقية استعملها الغرب،نجدها تسهم بشكل أكبر و أوسع في بيان القدرة الحجاجية للمثل في القرآن الكريم.

3/ تظهر قيمة الشكل الذي يبنى عليه المثل في قدرته على جعل المخاطَب يستنتج بنفسه الغرض الذي ضُرِب لأجله المثل ، وهذا من خلال ملئه "للمحل الشاغر".

4/ آليات الاشتغال الحجاجي في المثل متنوعة و متعددة و تسهم كلها في إبراز ما يكتنزه المثل من طاقة حجاجية .

5/المثل أسلوب يمنح المحاجج به القوة الكافية في الإقناع.

وبهذا نكون قد وضعنا قطرة في بحر العلم ، عسى أن تفيد من سيتوسع ويفصل ويبين الخبايا التي يختزنها المثل في القرآن الكريم في قدرته على الإقناع و التوجيه.

6- الهوامش

1 ابن القيم: الأمثال في القرآن الكريم،تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة، بيروت-لبنان، 1981، ص 125-128.

2 ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الأفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت-لبنان،ط1 ، 1968،ج2 ص 228، مادة (ح ج ج).

3 حمدي منصور جودي،جوان 2009،إستراتيجية الحجاج التعليمي عند الشيخ الإبراهيمي، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة-الجزائر، العدد5،ص386.

4 ابن منظور،لسان العرب:مادة" مثل " ج11 ص 610.

5 أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثيرالدين الأندلسي ،البحر المحيط، دار الكتب العلمية ،بيروت - لبنان، ط1، 1993، ج1 ،ص 207.

6 سميرة عدلي محمد رزق،إشراف،حسن محمد باجودة،وجوه البيان في أمثال القرآن،رسالة دكتوراه ، المملكة العربية السعودية،1987/1986 ص 5.

7 شعيب بن أحمد بن محمد الغزالي ، مباحث التشبيه و التمثيل في تفسير التحرير و التنوير،رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى -السعودية 1424 1425 هـ،ص200.

8 مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة-مصر، ط 7، 1995، ص276.

9 مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، ص 276.

10 ابن القيم، الأمثال في القرآن الكريم، ص174.

11 عبد الله صولة: في نظرية الحجاج،دراسات و تطبيقات،الشركة التونسية للنشر و تنمية فنون الرسم تونس،ط 1 ،ص57.

12 أرسطو طاليس: الخطابة، تر: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت لبنان ، 1979، ص37.

13 عبد الله صولة :في نظرية الحجاج ص56.

14 الحجاج أطره و منطلقاته و تقنياته،ضمن أهم نظريات الحجاج ،ص341.

15 محمد العمري،البلاغة الجديدة بين التخييل و التداول،أفريقيا الشرق-المغرب،ط2005،1 ص204.

16 الحجاج أطره و منطلقاته و تقنياته،ضمن أهم نظريات الحجاج ص 342.

17 الحجاج أطره و منطلقاته و تقنياته،ضمن أهم نظريات الحجاج ص 343.

18 بناصر البعزاتي،الصلة بين التمثيل و الاستنباط،ضمن كتاب التحاجج طبيعته و مجالاته و وظائفه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ط1،الرباط-المغرب، 2006،ص29.

19 بناصر البعزاتي، الصلة بين التمثيل والاستنباط،ضمن كتاب التحاجج 34.

20 كمال الزماني، حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي، عالم الكتب الحديث ، الأردن ط1، 2012،ص135.

21 حجاجية الصورة في الخطابة السياسية ،ص138

22 أبو بكر العزاوي، الحجاج في اللغة،العمدة في الطبع، الدار البيضاء-المغرب، ط2006،1، ص14.

23 الحجاج في اللغة،ص 20.

24 الحجاج في اللغة،ص22.

25 ينظر:حجاجية الصورة في الخطابة السياسية ،ص142، 143.

26 عبد الله صولة: الحجاج في القرآن الكريم من خلال خصائصه الأسلوبية ،دار الفارابي،بيروت لبنان،ط1، 2001، ص496.

27 تفسير التحرير والتنوير،الدار التونسية للنشر ، تونس ، ط1984م.،ج28 ص 213.

28 الحجاج في القرآن ، ص 496.

29 حجاجية الصورة في في الخطابة السياسية لدى الإمام على،ص201.

30 الحجاج في القرآن ، ص 549.

31 نفسه ،ص 549.

32 حجاجية الصورة في الخطابة السسياسية لدى الامام علي ، ص 208.

.التحرير و التنوير، ج 28، ص 21 33

34 نفسه ، ج28ص 214.

.الحجاج في القرآن ،ص 576 35

36 كمال الزماني ، حجاجية الصورة البلاغية في الخطابة السياسية لدى الإمام علي ، مقال ضمن :التحليل الحجاجي للخطاب ، إشراف وتقديم : أحمد قادم ، سعيد العوادي ، ، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع ، عمان- الأردن ،ط1، 2016، ص481.

37 محمد العمري،البلاغة العربية أصولها و امتداداتها،إفريقيا الشرق ،المغرب ،د ط ، 1999 ،ص488.

38 شكري المبخوت،الاستدلال البلاغي ،دار الكتاب الجديد المتحدة ،بيروت-لبنان ، ط 1، 2006 ، ص 85.

39 شعيب بن أحمد بن محمد الغزالي ، مباحث التشبيه و التمثيل في تفسير التحرير و التنوير،رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى - السعودية 1424 1425 هـ ،ص 295، 296 .

40 عبد الهادي بن ظافر الشهري:استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد،بنغازي – ليبيا،ط 1،2004،ص322.

41 في نظرية الحجاج،ص52.

42 اللغة والحجاج ، ص 27.

43 اللغة والحجاج ، ص 71،72.

44 التحرير والتنوير ج 11 ص ، 143.